

غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٦—

نام اهل الحي واصحاب القافلة نوما هنيئا . اما شمشو فلم يغمض جفنا على
جفن بل اخذ يسامر الكواكب والبدر المنير في سماء صافية الاديم وكان يرى
في البدر وجه حبيته حترأ وفي النجوم عينيها اللامعتين ويتخيل في تمايل
السنابل عند مر التسيم البليل قنعا الملبس ثوبا ودلالا . واذا سمع خرير الماء في
الجداول والترع يصغي اليه كأنه انشودة حب سرية .

وبين فينة وفينة يذكر بنت خالته شميرام بخير ويحفظ عليها ويأسف لبواعث
الاسى التي تختلج في صدرها بسبب حبها له وهو تحت سلطان غرام غيرها فلا
قدرة له على كبح جماح الهوى وتحكم فيه ولا سبيل له لارضائها . وبينما كانت
يد الهواجس تداعب مخيلته وانامل الشوق تلاعب شعوره اذا بعض الرعاة
الذين كانوا يتناوبون يصيحون بالويل والثبور ويستغيثون لنفع شر اسد انسل
بين القطعان يريد اقتراس الغنم فجمعوا عليه بغزوهم تعاونهم الكلاب الجريئة
الكبيرة الجثث فانقضت على الاسد انقضاضها على فرائس الصيد . وبعد عراك
هائل تمكن القوم من طرد الاسد وقد خذل اي خذل لانه لم ياخذ فريسته .

وفي الصباح استأنفت القافلة السير وكانت اصحابها يعمرن على المزارع
فمنها ما كان يزرعها الملاكون مباشرة وقد اقلعوا عليها الوكلاء واستأجروا
لها الفلاحين من الاحرار او العبيد بمقدور مسجلة . وبين الفلاحين من
يقضي عليه شروط عقدة ان يخدم خدمة العبيد ويكون ملكا لملك الارض
حتى ينتهي الاجل المضروب ومن الاراضي ما كان مؤجرا او « ملتزما » ويلفع
الفلاحون الى مالكيها حصة مقطوعة او نسيئة من نتاج الارض .

كان بلاتودعي يبروس يسير الى جانب شمشو في الطريق ويتحدثان في
مواضيع مختلفة فتناولوا البحث في ملكية الاراضي في بابل وقوانينها فقال شمشو:
الارض ملك الالهة في الاصل يولونها لمن شئوا من الملوك والسلاطين

وهؤلاء. وهبوا منها ولا يزالون يهبون قطعاً لمن شاؤوا من المخلصين لهم والمقربين منهم حتى غسدا معظم الأراضي بيد الشرفاء ورجال الدولة والجيش ومختلف طبقات الناس من العامة. لأن من ثال هبة من الملك من تلك الأراضي لم ان يتصرف فيها حسبما شاء. و اراد من ايجار وبيع واستغلال وتقسيم بين ورثته او بين اصدقائه بعد ان يدفع ضريبة الدولة ورسوم الهيكل المقررة مهما كانت ثقيلة الوطأة وليس لاي كان ان يتدخل في شؤون هذا المالك او يضيق حريته. وملكية الأراضي مثبتة في رقمين طين مدونة فيها تقسيم كل ارض وحدودها واسم صاحبها وما فيها من النخفضات والمرفعات والترع والجداول ومساحتها واذا وجد بعض المبهمات تخطط صورة او خريطة مختصرة تلتحق بالرقم زيادة للايضاح.

وعلى هذا المسح العام للأراضي « الكادسترو » تجبى الضرائب والرسوم وتقرض على قاعدة ثابتة. لا يحتمل وقوع اجفاف كبير بالمزارعين. ويرجع من حين الى آخر الى مسح الأراضي التي يشك في صحة مساحتها. بلاتو - اني لم اتعاط الزراعة ولا وقوف لي على هذه المعاملات ولكن لا تظن ان الضرائب والرسوم التي تجبى على مساحة الأراضي لا تكون عادلة لان بعض الأراضي مخصبة كل الحصب وبعضها دون ذلك وبعضها قليلة الانتاج.

شمشو - الحق ملك. إلا ان الشرائع المرعية قد نظرت في هذا الامر وجعلت تقدير حاصل كل وحدة قياسية يختلف عن حاصل وحدة قياسية اخرى نظرا الى جودة الارض وموقعها (1).

وهكذا كانت تقطع القافلة مرحلة بعد مرحلة بأطيب الاحاديث وافكه النوادر والخوض في مواضيع شتى. وبلغت في اليوم الخامس مدينة اوبي (2) الشهيرة

(1) G. Maspéro. His. Anc. des Peuples de l' Orient classique. Les Origines. Egypte et Chaldée. P 761.

(2) مدينة قديمة في شمالي بابل في بلاد أكد تكاد تكون على مقربة من نخوم بلاد اشور وكان لها شهرة بعيدة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد ويروى في تاريخ سنكرولس Synchronous. ان تفتتلا سر الاول دوحها (١١٠٠ ق م). وقد اتخذها متحارب

بتجارها الواقعة عند مصب نهر فسفس وعلى ضفة دجلة الغربية . فغضب رجال القافلة في ان يقضوا يوما في تلك المدينة للتفرج وقضاء بعض الحاجات فوافقهم رئيس القافلة .



تركت القافلة اوبى وسارت في طريقها الى بلاد اشور وبعد ان قطعت ثمانى ساعات انزلت الاحمال والاثقال للاستراحة والمبيت بموجب العادة . وهنا حدث امر ذوبل وهو ان « بلاتو » دعي بيروس اصبح جثة هامدة وفي جسمه آثار السم بادية والى جانبه كلبهميت ايضا وفيه مثل تلك الامارات وبعد البحث عن السبب تحقق شمشو انهما اكلا من الزاد الذي بعثت به اليه شميرام ولكي يقف على ما في هذا الزاد من القوة السامة التي منه شيئا لكلب آخر فمات لساعته . فلم يبق لديه شك في الامر فطرح ذلك الزاد في دجلة ولم يحتفظ إلا بشيء زهيد منه شهادة على ما فيه . حتى اذا ما رجع الى بابل يبحث عن الجاني .

وكان هذا الامر الخطير من بواعث القلق والاضطراب لشمشو واخذ يفكر في اليد اللائمة التي تجرأت على دس هذه الدسيصة وهذه الفعلة الشنعاء التي كادت تؤدي بحياته لو لم يضح على هيكلها « بلاتو » الذي دفعه جشعه الى حياض الموت وجذبت شراسته الى ذلك المورد الرق .

فبقي شمشو العوبة بيد عوامل كثيرة . فكان تارة يتهم شميرام وينهب الى انها التجأت الى هذه الدسيصة انتقاما منه لاعراضه عن زواجها وحبه صرآء .

مكلا لشحن السفن في حملته على شعوب خابج فارس والعماليين - وقد ذكرها زينفون : اناباس (٤٠٢ : ٢٥٥٥) ويظهر ان في عهد اسرانيون لم تكن اكير من قرية (٢٩٤١٢) ١٦ (٩٤١) ويرثي واليس يدج ان خرابها ربما حدث بسبب تغيير دجلة مجراها والصراقة عنها (راجع Wallis Budge . - By Nile and Tigris. II . P. 118 ويرثي المستشرق هرتسفلد (مجلة لغة العرب ٣٠٩١ : ٣٠٢) ان اوبى هي قرية باحشا التي ذكرها ياقوت في معجمه وهي واقعة بين اوانا والخطيرة وهي قرية من اعمال دجيل .

ان اوبى هي المدينة العظيمة البابلية الوحيدة التي كانت على دجلة اما سائر مدنها فكانت على الفرات .

وطورا بطرد هذه الاوهام والوساوس والباطل ويبرىء ساحتها من هذا المنكر القبيح
لما يعمده فيها من الاخلاق الحميدة والحب الخالص... ولكن في الامر سرا...
فمن اتى اذا هذا الامر المنكر؟ فلم يهتك البحث سنار هذا السر الفاض ولا ازاح
التنقيب الابهام الذي يحف بهذا الحادث المريب.

وكان يرجع حينئذ الى ذكر «بلا تو» الذي بعث معه ييروس المخلص على
ما يعتقد وكيف مات بلا ذنب ولا حرج وهلك ضحية تلك المؤامرة السرية
فيتخيل كانه امام الكاهن الكلداني يؤنبه على موت البار... وهو لا يجير جوابا
ولا يتمكن من تمحل الاعذار.

وكان في الطريق كله مشتت الافكار قلق البال. ولا تفارق اشباح ذلك الحادث
خيلته. فكان يكرر اقوالا متقطعة... شميرام... السم في الزاد... بلا تو البار...
موت ظلم وعدوان... ييروس المحسن... غموض في ابهام... في اسرار تكتنفها
الظلمات ولم يجد تسلية الا في ذكرى حترآ... حترآ الحبيبة.
بعد اربعة عشر يوما من مفارقة بابل وصلت القافلة الى نينوى.



رأينا شميرام قد عدلت عن الاستسلام لسلطان الهوى ورأت في الغرام ذلا
تأفف النفس الالية من الرضوخ لفضائنه فحكمت العقل على القلب واستولت على
الشعور بسمو المدارك. فوجدت راحة وهنا. وسلاما في نفسها واخذت تطالع
الرقم وتلتقط منها شوارد الحكمة وآيات الرشد.

وكان لها ولع خاص برقيم مدونة فيه حكم السلوك فكثيرا ما كانت ترد
في فكرها ماتعلمته منها فتقول: لا تغتب. تكلم بما ينزهك. لا تغضب. تكلم باللطف.
من يغتب ويقطع يزره شمس (١) على رأسه. لا تتبجح. احفظ شفقتك. ان
غضبت لا ترفع صوتك. التكلم في ساعة الغضب يورث الندام. وبالسكوت
دار حزنك. تعلم الحكمة من الرقم (الالواح) (٢). مخافة اللالاه تولي نعمه.

(١) شمس — آله العدل عند البابليين وهو رأس الثلاث الثاني.

(٢) الرقم هي الالواح الحجرية المكتوبة والتي كانت بمقام الكتب في هذا اليوم ومعنى
هذا للتل تعلم الحكمة من مطالعة الكتب.



— الصلاة تجلب غفران الخطيئة — اطعم الناس واشربهم خرا . اجث من الحق واجتنب الباطل — لاتكلم شرا عن صديقك ورفيقك — ان وعدت انجز ما وعدت — لاتكلم كثيرا بل احسن التكلم — من يخف الآلهة لا يصرخ عبثا (١)
وكانت تنشده في بعض الاوقات اناشيد دينية مؤثرة تدور حول تداية الأتسان على خطيئته وطلب المغفرة عما يترتب عليه من القصاص والعقاب من جرائمه .
وانشاء تلك الأناشيد بليغ وفيه معان شعرية عالية تنفذ الى القلوب قبل ولوجها الأذان وتحرك العواطف بلا استئذان . وكثيرا ما كانت تنزل الحديقة في الليل وترنم بتلك الأناشيد .

وكانت نجيتها تنو ترأقب حركاتها وسكناتها عن كذب وتبلغ ييروس الكاهن كل ما تقول وتفعله سيدتها . وقالت له يوما اني آس في شميرام اعراضا عن حب شمشو فلا تذكره ذكر الحبيبة طيبها بل ذكر بنت الحال لابن عمها وكاني بادعينك قد استجابتها الآلهة . وهي تنزل كل ليلة الى الحديقة بعد العشاء وتتمشى فيها حتى تبلغ آخرها فكان هذا الخبر مدعاة لتدبير حيلة اخرى حاول بها ييروس السيطرة على افكار « غادة بابل » .



خيم الظلام على ربوع بابل فتردى ييروس ثياب الآلهة اشتر بعد ان انتزعها من تماثيلها (٢) وتوجهت توا الى حديقة شميرام وتسلق نخلة وبقى كمنها هناك وبعد حين سمع صوت شميرام الرخيم وهي تنشد انشودة اشتر الآلهة الحب والتاسل . واخذ يتقرب صوتها شيئا فشيئا حتى بدا له خيالها من بعيد وهي تمشي الهوينا في مخرف تلك الجنيانة النظرة فتقف حيناً عند الأزاهير تقتطف منها ما طابرت رائحتها وعقب شذالها وطورا تستأنف السير متبخترة ولما صارت على مقربة منها خاطبها بصوت سحري ذي جلال قائلاً لها :

يا عنراء بابل ؟ يا بنت الآلهة ! قفي في محلك متبينة لان الروح الذي يخاطبك

(١) هذه الامثال مستلة من مجموعة امثال بابلية راجم Jastrow.- The Civilisation of Babylon and Assyria . P 464

(٢) كان البابليون يلبسون تماثيل الآلهة ثياباً فاخرة وحلى ثمينة .

روح الالهة اشتر انبتك ان دموع ندامتك صعدت الي كعطر بخور ذكي وارضنتي فوجئت عندي نعمة وقصت الالهة في ندوتها ان تعيني سعيدة وسجل «نبو» (١) في لوح الاقدار سعدك . فنجيت من آلام الغرام وهما ان ذلك القاسي الذي لم يمالكك في حبك لم يموت عاجلا . فما لك إلا ان تقرني حياتك بحياته كاهن فيعقد لك تاج السعد . »

فجمد الدم في عروق شعيرام وهلع قلبها رعبا ثم خارت قواها فسقطت مغشيا عليها بعد ان صرخت صوتا سمعه من كان في دارها . ففر يروس هاربا . وجاء اهله واخوتهم وعبيدهم فحملوها الى غرفة نومها وعالجوا انعاش قواها الخائرة ولما تاب اليها رشدها قصت عليهم ما رأته وسمعته وما اوحا اليها روح اشتر من موت شمشو .

إلا ان ذلك المشهد وذلك المسمع وذلك النبا نبأ موت شمشو كل هذا لم يؤثر في اعتقادها بل كانت تحملها على خزعات وتو على دسيسة ائيمة يكشف المستقبل غباها ويظهر بواطن اسرارها حتى ان امها اخفت تخاف عليها من غضب الالهة التي لا تكثر لهم وبقواتهم وقدرتهم .

يوسف غنيمة

« الشيخ علي سالم الصباح »

في اليوم الاول من شهر ك ٢ من هذه السنة ١٩٢٨ توفي الشيخ علي سالم الصباح اثر ما اصابه من الجروح العظيمة في وقعة الاخوان . فشمع الحزن الكورتين جميعهم واتسعت المدينة بالحداد وتعطلت الاعمال واقفلت الاسواق واقبعت للمتوفى مناحات في الطرق وفي الدور .

وكان المرحوم ثاني ابناء الشيخ سالم الصباح وابن عم حاكمها الان وكان في مقبل العمر ومن الشبان المتورين واشتهر بالشهامة والاقدام والبسالة والجرأة وكان في الحادثة التي جرح فيها يقود حملة اركبها ١٧ سيارة فقابل الهاجين بقلب قد من الجلود المانع وقتلهم قتال الابطال المستميتين حتى سقط قبيل ان تلحق به القوة التي انضمت اليه بعد جرحه الذي قضى عليه بعد ان علش خمسة ايام يقاسي فيها اشد الآلام .

(٢) ارجع الى القسم الرابع من هذه الرواية تجد فيه وصف ندوة الالهة ووظيفة الاله نبو فيها .